﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصّلت: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تكريرُ الجُلودِ للوعظِ والزَّجرِ بعد اعتذارها الذي حملَ الوعظَ والتَّنبيه

لَمّا اعتَذَرتِ الجُلودُ بِما يُعدُّ وعظًا وتنبيهًا للمُعذَّبين في هَذِهِ الدُّنيا، وفي الآخِرَةِ تَوبيخًا وتَنديمًا، بقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ قالتِ الجُلودُ مُكرِّرَةً لِلوَعْظِ والزَّجْر: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾: (ستر) أصلٌ يدُلُّ على الغِطاءِ، وسَتَرْتُ الشَّيءَ أَسْتُرُه؛ إذا غَطَّيْته، فاسْتَتَر، وسَتَرَ يَسْتُرُه: أخفاه، والسُّتْرَةُ: ما استَتَرْتَ بِهِ، كائنًا ما كانَ[2]، وسَتَرَ الشَّيءَ سَتْرًا: خلافُ أبداه[3]، وتستَّرَ الشَّخصُ: تَخفَّى، واحتجب، وتغطّى[4]، والسِّتْر: الخَوْفُ، يُقال: فلانٌ لا يَسْتَتِر من اللّه بسِتْر، أي: لا يَخْشاه، ولا يَتَّقيه، وهوَ مَجازٌ، ويُقال: ما لِفلانٍ سِتْرٌ ولا حِجْرٌ، فالسِّتْر: الحَياءُ[5]، ومعنى: ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ في الآية: تتكلَّفون السِّترَ عند المعاصي، وتَستَخْفون، أو تتَّقون، أو تظنّون[6].

2) ﴿ظَنَنتُمْ﴾: (ظَنَّ) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى مَعنَيَينِ مُختَلِفَينِ: يَقينٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 172.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ستر).
(3) الحميريّ، شمس العلوم: (ستر).
(4) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (ستر).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (ستر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 453 - 454، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 172، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 269.

وشَكٍّ، ومنَ الأوَّل قولُهم: مَظِنَّةُ الشَّيءِ: مَعلَمُهُ ومَكانُه، ومن الثّاني قولُهم: الظِّنَّةُ: التُّهمةُ[1]، ويدورُ معنى الظَّنِّ على توقُّعِ وجودِ شيءٍ مُهِمٍّ لأمارَةٍ أو دليلٍ قويَّين[2]، فمتَى قَويت هذه العلامَةُ؛ أدَّتْ إلى اليقين والعِلم، ومتى ضَعُفَتْ جدًّا؛ لم يتجاوزِ الظَّنُّ حدَّ التَّوهُّم[3]، وقد وردَ الظَّنُّ في القرآن على أربعة أوجه: بمعنى اليقين، وبمعنى الشَّكِّ، وبمعنى التُّهَمة، وبمعنى الحُسْبان[4]، ومعنى ﴿ظَنَنتُمْ﴾ في الآية: حَسِبْتُم[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حكايةٌ لِما سيُقال للمشركين يومَ القيامة بطريقِ التَّوبيخ تقريرًا لجوابِ الجُلودِ

وما كُنتُم في الدُّنيا تتكلَّفون السِّترَ، وتَستَخْفونَ بتَرْكِ الكُفرِ والمعاصي؛ مخافةَ أن يَشهَدَ عليكم سَمعُكم وأبصارُكم وجُلودُكم يومَ القيامةِ، ولكِن ظَنَنتُم أنَّ اللّهَ لا يَعلَمُ كَثيرًا ممّا تَعمَلونَ من أعمالكم الخبيثةِ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾:

التَّهديدُ بالمواجهةِ منه سبحانه أشدُّ وأكثرُ إيقاظًا للإصغاء

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ التِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخطاب، على القول بأنَّ الخطابَ هنا مِنَ اللّه تعالى للمعذَّبين، فما سبقَ إخبارٌ مِنَ اللّهِ تعالى عن الحوارِ الدّائرِ بين أهلِ النّار وجوارحهم، ثمَّ التفتَ هنا إلى مخاطبةِ أهلِ النّار مباشرة، وفي هذا الالتفاتِ إيذانٌ باقتِضاءِ حالِهم أنْ يُهدَّدوا، ويوبَّخوا بالمواجهةِ والتَّصدّي لبيانِ شرِّهم؛ إذِ التَّهديدُ بالمواجهة أشدُّ مِن التَّهديدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظن).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ظنن).
(3) الرّاغب، المفردات: (ظنّ).
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 425، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 545.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 454.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 454.

بالغَيبة، وللإيماءِ بأنَّ حالهم لا يغيبُ عنه سبحانه، إضافةً إلى ما في الالتفات من كونهِ أحسنَ تطريةً لنشاطِ السّامع، وأكثرُ إيقاظًا للإصغاء؛ لطولِ استعمالِ طريقِ الغَيبة فيما سبقَ مِن آيات.

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَمَا كُنتُمْ﴾:

عطفٌ واعتراضٌ يحملُ توبيخًا للكافرين بعد شهادةِ جوارحهم عليهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ عاطفةٌ، والجملةُ بتَمامِها إمّا مَعطوفةٌ على جُملةِ: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فتكونُ مَشمولةً للاعتراض، مُتَّصلةً بالتي قَبلَها، أو معطوفةً على جُملةِ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: 19]، ويجوزُ أنْ تكون الواوُ اعتراضيَّةً، والجملةُ مُعتَرِضةً بين تلك الجُملةِ وجُملةِ: ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، ومُناسَبةُ الاعتراضِ: ما جَرَى مِن ذِكرِ شَهادةِ سَمعِهم وأبصارِهم وجُلودِهم عليهم، فيكونُ الخِطابُ لجَميعِ المُشركينَ الأحياءِ في الدُّنيا، أو لِلمُشركينَ في يَومِ القيامةِ[1]، والجملةُ حكايةٌ لِما سيُقال لهم يومَئِذٍ من جهتهِ تعالى، بطريقِ التَّوبيخ والتَّقريعِ تقريرًا لجوابِ الجُلودِ[2].

إيثار النَّفي بـ (ما):

تأكيدُ نفيِ استتارِ الكافرين عند مباشرتهم الفواحشَ

آثرَ البيانُ الإلهيُّ النَّفي بـ (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾؛ لقوَّةِ النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكَدُ مِن (ليس) ومِن (لم)[3]، وكذلك فإنَّ (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلام أو ما نُزِّلَ هذه المنزلةَ، وقد جاءَتْ في هذه الآيةِ ردًّا على كلامِ المُعذَّبين المُنكِرين على جلودهم أن يَشهدوا عليهم بما فعلوهُ مِن الموبقات.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي المنفي:

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿كُنتُمْ﴾ بصيغة الماضي المنفي في قولهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 269.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.
(3) لأنّها تقع جوابًا للقسم، تقول: (والله ما هو بمنطلق) بخلاف: (ليس) وبخلاف: (لم).

المبالغةُ في بيانِ عدمِ استتارِ الكافرين في عملِ المعاصي تأكيدٌ لشدَّةِ طغيانهم

تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾، ولم يقل: (وما تستترون)؛ للدَّلالة على أنَّ عدمَ الاستتارِ من الكافرين كان في الدُّنيا عند مباشرتِهم الفواحشَ[1]، وللمبالغةِ في بيانِ استمرارِ الكافرين في عدمِ استتارِهم عند ارتكابهم للمعاصي والفواحش، وفي هذه المبالغةِ في النَّفي تأكيدٌ على عنادِهم وشدَّةِ طغيانهم؛ لأنَّ النَّفيَ بهذه الصّيغة أشدُّ ممّا لو قيلَ: (وما تستترون)؛ لأنَّ فعْلَ الكونِ يُفيدُ الدَّوامَ والاستمرارَ، والماضي يدلُّ على التَّحقُّقِ والوقوعِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾، وسِرُّ صوغِه مضارعًا:

تصويرٌ لعدمِ تخفّي الكافرين عند ارتكابِهم المعاصي ولو تكلُّفًا

عبَّر البيانُ الحكيم بلفظ ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ دون (تستخفون)؛ لكون ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ أبلغَ وأوسعَ دلالةً؛ فقد دلَّ لفظُ ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ على معنى التَّخفّي والاحتجاب[2]، والوقايةِ والخوفِ والحياء[3]، لا مجرَّدَ معنى الإخفاء الذي هو مقابلُ الإبداء والإعلان والإظهار والجهر[4]، وقد جاء التَّعبيرُ بالفعل ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ دون (تسترون)؛ زيادةً في المبالغة في عدم التَّخفّي، فلم يَقلْ: (وما كنتم تسترون أنفسكم)؛ لكون الفعلِ المُضعَّف أبلغَ في التَّعبير، أي: ليُشيرَ إلى عدمِ السِّترِ ولو تكلُّفًا، والمعنى: وما كنتم تتكلَّفون السِّتْرَ عِندَ المَعاصي[5]، ويمكن أن يكون فعلُ ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ مُستعملًا في حقيقته ومجازِه، أي: تستترون بأعمالكم عن سمعِكم وأبصاركم وجلودكم، وذلك توبيخٌ؛ كنايةً عن أنَّهم ما كانوا يرونَ ما هم عليه قبيحًا حتّى يستتروا منه[6]، أو كنايةً عنِ الاتِّقاء، أي: ما كنتم تتَّقون في الدُّنيا أنْ تشهدَ عليكم جوارحُكم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 410.
(2) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (ستر).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (ستر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خفي).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 172.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 271.

في الآخِرَة، فتتركوا المعاصي خوفًا مِن هذه الشَّهادة[1]، وفي صَوْغِهِ مضارعًا مبالغةٌ في عدمِ تستُّرهم؛ إذ عدمُ استتارِهم متجدِّدٌ منهم، بالإضافةِ إلى ما تدلُّ عليه المضارعة من تصويرِ هذا الحَدَث.

سرُّ التَّعبير بواو الجماعة في ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾:

خطابُ جماعةِ المعذَّبين إشارةٌ إلى اجتماعهم على عدمِ استتارهم

أتى النَّظمُ الكريم بالفاعل ضميرًا دونَ الاسم الصَّريح في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾؛ لأنَّ الأسلوبَ أسلوبُ المخاطَبِ، والتَّعبيرُ بواو الجماعة؛ لأنَّ الخطابَ لجماعةِ المُعذَّبين، وللإشارة إلى اجتماعهم على عدمِ التَّستُّر في الدُّنيا عند مباشرتِهمُ الفواحشَ؛ مخافةَ أنْ تشهدَ عليهم جوارِحُهم بذلكَ، كما كانوا يستترون من النّاسِ مخافةَ الافتضاحِ عندهم، وكذلك أتى بالجمعِ تناسبًا مع السّياقِ الذي وردَتْ فيه صيغُ الجمع.

نُكْتَةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يَشْهَدَ﴾:

في تأكيدِ تجدُّدِ شهادةِ جوارحهم عليهم دلالةٌ على شدَّةِ طغيانهم

آثرَ البيانُ الحكيم التَّعبيرَ بالمصدرِ المؤوَّل ﴿أَن يَشْهَدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾، الذي جعلَ الكلام صالحًا لدخولِ الفعلِ المضارع على الجملة بما أعطاها من التَّجدُّد والحدوث؛ تقويةً للمعنى، وتأكيدًا على تجدُّدِ شهادةِ جوارحهم عليهم عند ارتكابِ الفواحش، وتصويرًا لحالةِ شهادةِ سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم، بما يدلُّ على شدَّةِ ضلالهم وطغيانه.

بلاغةُ الحذف في الآية:

في الحذفِ المفهومِ من السّياقِ بلاغةٌ قرآنيَّة

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ لا بدَّ من تقديرِ محذوفٍ يُفهَم مِنَ السّياق حتّى يستقيمَ المعنى، والمحذوفُ إمّا (مِن)، وهو حرفُ جرٍّ يتعدّى به فعلُ ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ إلى ﴿أَن يَشْهَدَ﴾، وهو محذوفٌ على الطَّريقةِ المشهورة في حذفِ حرف الجرِّ مع (أنْ)،

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 352.

والمعنى: ما كنتُمْ تستترونَ من شهادةِ سمعكم وأبصاركم وجلودكم، وما كنتم تتَّقون شهادتها؛ إذ لا تحسبون أنَّ ما أنتم عليه ضائر؛ إذ أنتم لا تؤمنون بوقوعِ يوم الحساب[1]، وإمّا أنْ يكونَ المحذوفُ هو مفعول لأجله، والتَّقدير: ما كنتُم تستترونَ في الدُّنيا عند مباشرتِكم الفواحشَ مخافةَ أنْ تشهدَ عليكُم جوارِحُكُم بذلكَ[2]، كما أنَّ الحذفَ في الآيةِ يتناسبُ مع لفظِ التَّستُّر الوارد في الآية.

فائدةُ الإطناب بإعادة ذِكْرِ السَّمع والأبصار والجُلود:

تأكيدُ نفي تستُّرهم عن سمعهم وأبصارهم وجلودهم مبالغةٌ في زجرهم

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بذكرِ السَّمع والأبصارِ والجُلودِ في قوله تعالى: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، مع أنَّها ذُكِرتْ في آيةٍ سابقةٍ، فلم يقلْ: (أنْ يشهدوا عليكم، أو أنْ نشهد عليكم)؛ لكون المَقصودِ هو المبالغة في الزَّجرِ، وأطنبَ كذلك بتكريرِ حرف النَّفي (لا) ثلاثَ مرّاتٍ؛ تأكيدًا لنفي التَّستُّر[3]، فالأبصارُ تشهدُ بما رأتْ، والآذانُ تشهدُ بما سمعَتْ، والجُلودُ بما لامسَتْ[4].

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على الفاعل ﴿سَمْعُكُمْ﴾:

شهادةُ سمعهم وأبصارهم وجلودهم مختصَّةٌ بأنَّها ضدُّ أصحابها

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على الفاعل ﴿سَمْعُكُمْ﴾ يفيدُ الاختصاص، أي: أن يشهدَ سمعُكم وأبصارُكم وجلودُكم عليكم دونَ غيركم، وهذا أدعى في إقامةِ الحُجَّة عليهم يومَ القيامة، وأبلغُ في تخويفهم في الدُّنيا؛ ليتَّعظوا، ويعودوا عن كفرِهم، كما أنَّ تقديم الجارِّ والمجرور أكثرُ تناسبًا؛ كي تكونَ تعديةُ الفعل (شهد) بالحرف (على) - الذي يفيدُ معنى الشَّهادة ضدَّهم - دون فاصلٍ بينهما.

دلالةُ العطف في ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾:

عطَفَ البيانُ القرآنيُّ الأبصارَ والجلودَ على السَّمع في قوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 270.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 172.
(4) الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 24/ 151.

اشـتراكُ جميعِ جوارحِ الكفّار في شهادتها عليهم دليـلٌ جرأتهم في ارتـكـابِ الفواحش

تعالى: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾؛ لإفادةِ اشتراكِ جوارحهم في الشَّهادةِ عليهم يومَ القيامة، بما يدلُّ على زيادةِ إقامةِ الحُجَّة عليهم، ومِن ثَمَّ زيادةُ تبكيتهم وتوبيخهم، بأنَّهم لشِدَّةِ كفرهم بالبعثِ والحساب لم يستتروا من جوارحهم عند مباشرتِهم الفواحش.

لطيفةُ تقديم السَّمع على الأبصار والجُلود:

السَّـمعُ أسبقُ في الإحـسـاسِ بـالأشـيـاءِ من البصرِ والجوارح

تقديمُ السَّمعِ على البصرِ والجلودِ في قوله تعالى: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ من بابِ التَّشريف[1]، فحاسَّةُ السَّمعِ أنفعُ وأفضلُ فائدةً لصاحبها، ولأنَّ السَّمعَ أسبقُ في الإحساسِ بالأشياءِ من البصرِ والجوارح، فالسَّمعُ أوَّلُ الإدراكات، والتَّقديمُ مُؤذِنٌ بأهمّيَّة المُقدَّم.

الغرضُ من الإضافة في المعطوفات:

في بيانِ أنَّ الَّذي يـشـهـد عـلى الكافرِ جُزءٌ منه تخويفٌ وتحذير

الإضافةُ في المعطوفات، وهي قوله: ﴿سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إضافةٌ بيانيَّةٌ، تبيِّنُ أنَّ الشُّهودَ على الكافرين هي بعضٌ منهم، فهي أسماعُهم وأبصارهم وجلودُهم تخرجُ عليهم، وتشهدُ ضدَّهم، مستجيبةً لربِّها طائعةً مستسلمة، تروي عنهم ما حسبوه سرًّا، وتفضحُ ما حسبوه مستورًا عن الخَلقِ أجمعين وعن اللهِ ربِّ العالَمين، بعد أنْ جعلَ اللهُ ألسنتَهم معقودةً لا تنطقُ، وقد كانَتْ تكذبُ، وتفتري، وتستهزئ، وفي بيانِ أنَّ شهادةَ هذه الجوارح تكون على أصحابها تخويفًا وترهيبًا وتحذيرًا.

معنى الواو في ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ﴾:

عـطـفٌ أفـادَ تـعـلـيـلَ عـدمِ استتارِ الكفّارِ عند ارتكابهم الفواحش

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ عاطفةٌ[2]، عطفتِ الجملةَ على جملة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾،

(1) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 254.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 548.

وقد أفادَ هذا العطفُ تعليلَ عدمِ استتارهم عند ارتكابهم الفواحشَ، وهو ظنُّهم أنَّ اللّهَ لا يعلمُ كثيرًا ممّا يعملون.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿وَلَٰكِن﴾:

﴿وَلَٰكِن﴾ استدراكٌ ممّا فُهِم من الكَلام، أي: ما ظننتم أنَّ اللّهَ تعالى يعلمُ ما فعلتُم، وإنّ يكُ مثقالَ حبَّةٍ من خَردلٍ، أو تكونوا في صخرةٍ، أو في السَّماوات أو في الأرضِ، فيُنطق أعضاءَكم، ولكن ظننتُم أنَّ اللّهَ لا يعلمُ كثيرًا، وهو ما تفعلون خفيةً من وراءِ الحجاب، فلذلك بالغتُم في الاستتار عن أعينِ النّاس لا مِن علّامِ الغيوب، ولا تخافون أنَّه تعالى يُنطِقُ الجوارح[1]، أي: لم تتحفَّظوا من شهادةِ سمعكم وأبصارِكم وجلودِكم؛ لأنَّكم لم تبالوا بشهادتها، ولم تظنّوا أنَّها تشهدُ عليكم، وإنَّما استترْتُم؛ لأنَّكم ظننْتُم أنَّ اللّهَ لا يعلمُ كثيرًا ممّا تعملون[2].

لم يكن استتارُهم خوفًا من شهادةِ جوارحهم عليهم، وإنَّما لظنِّهم بعدمِ علمِ اللهِ بما يعملون

بلاغةُ التَّعبيرِ بفعل ﴿ظَنَنتُمْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالظَّنِّ في قوله تعالى: ﴿ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ أسبابَ الضَّلالِ في العقائدِ كُلِّها إنَّما تأتي على النّاسِ من فَسادِ التَّأمُّلِ، وسُرعةِ الإيقانِ، وعَدَمِ التَّمييزِ بينَ الدَّلائلِ الصّائبةِ والدَّلائلِ المُشابهةِ، وكُلُّ ذلك يُفضي إلى الوَهمِ المُعَبَّرِ عنه بالظَّنِّ السَّيِّئِ أو الباطِلِ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «إيّاكم والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديث»[3]، فالظَّنُّ نوعان: ظنٌّ مُنجٍ، وظنٌّ مردٍ، والمراد هنا الظَّنُّ المُرْدي[4]، ولعلَّ الأنسبَ أنْ يرادَ بالظَّنِّ مَعْنًى مجازيٌّ يعمُّ معناهُ الحقيقيَّ، وما هو فوقَه من العِلم، وما يَجري مَجراه من الأعمالِ المُنبئةِ عنْهُ، كما في قولِه تعالى:

أسبابُ الضَّلالِ في العقائدِ كُلِّها إنَّما تأتي على النّاسِ مِن فَسادِ التَّأمُّل

(1) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 17/ 150.
(2) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 240.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 273.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 557.

﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة: 3]؛ ليَعُمَّ ما حُكي من الحالِ جَميعَ أصنافِ الكَفَرةِ[1].

وقد أتى الفعلُ ﴿ظَنَنتُمۡ﴾ بصيغةِ الماضي على حقيقته؛ إذ هو ماضٍ بالنِّسبةِ للزَّمن الذي يتمُّ فيه هذا الخطاب، وللدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ الظَّنِّ المُردي منهم وانقضائه، بما يُؤكِّدُ استحقاقَهم للعذاب.

تحقُّقُ وقوعِ الظَّنِّ المُردي منهم يُؤكِّدُ استحقاقَهم للعذاب

دلالةُ التَّعبير بـ﴿أَنَّ﴾ واسميَّة الجملة:

جاءَ التَّعبيرُ بـ﴿أَنَّ﴾ التي تُفيدُ التَّوكيدَ في قوله تعالى: ﴿ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ أنَّ ظنَّهم بأنَّ اللهَ لا يعلمُ كثيرًا ممّا يعملون كان مؤكَّدًا جدًّا، كما أنَّ اسميَّةَ الجملةِ دلَّتْ على ثباتِ هذا الظَّنِّ ودوامِهِ منهم، ممّا استحقّوا عليه التَّردّي والهلاكِ في النّار، والجملةُ الاسميَّة من ﴿أَنَّ﴾ وما بعدَها سدَّتْ مسدَّ مفعولي ﴿ظَنَنتُمۡ﴾.

ظنُّ أهلِ النّار ظنٌّ مؤكَّدٌ وثابتٌ بأنَّ اللهَ لا يعلمُ كثيرًا ممّا يعملون

سرُّ التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾:

في التَّعبيرِ بالاسمِ الجليل الجامعِ لكلِّ صفاتِ الكمال والجلال والقدرة والعِلم، في قوله تعالى: ﴿ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، دلالةٌ على وقاحةِ الكفّارِ وجُرأتهم في ظنِّهمُ الفاسدِ باللهِ علّامِ الغيوب، الذي لا يخفى عليه شيءٌ، فكيف يُظنُّ بالذي يتَّصفُ بكلِّ صفاتِ الأُلوهيَّة هذا الظَّنَّ الرَّدي؟.

الظَّنُّ الفاسدُ بمَنْ يتَّصفُ بكلِّ صفاتِ الأُلوهيَّة جرأةٌ تستحقُّ العذاب

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المنفي ﴿لَا يَعۡلَمُ﴾:

أفادَ صوغُ الفعل ﴿لَا يَعۡلَمُ﴾ بصيغةِ المضارع المنفي جُرأةَ الكافرين على اللهِ، وشدَّةَ كفرهم، فقد ظَنّوا تجدُّدَ عدمِ علمِ اللهِ تعالى لِما يعملون واستمرارَهُ؛ ممّا دفعهم إلى فعلِ الفواحشِ والاستمرارِ عليها.

ظنُّ الكافرين باستمرارِ عدمِ علمِ اللهِ لِما يعملون جرأةٌ وإصرارٌ على الكفر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 11، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 587.

سِرُّ التَّعبير بـ﴿كَثِيرًا﴾:

ظَنُّهم بأنَّ الله لا يعلمُ شيئًا ممّا يعملون جَعَلَهم يُكثرونَ من الأعمالِ القبيحة

لا يُرادُ بلفظ ﴿كَثِيرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مفهومُ المخالفة، وإنَّما المرادُ أنَّهم ظنّوا أنَّ اللهَ لا يعلمُ شيئًا ممّا يعملون، ولكنَّ البيان القرآنيَّ الحكيم عبَّرَ بلفظ ﴿كَثِيرًا﴾؛ للإشارةِ إلى كثرةِ الأعمالِ القبيحة الَّتي كانوا يعملونها قولًا وفعلًا، والمعنى: ولكن ظننتُم أنَّ اللهَ لا يعلمُ الذُّنوبَ الكثيرة التي تعملونها.

معنى (مِنْ) ودلالتُها في ﴿مِّمَّا﴾:

بيانٌ لظنِّهم بعدمِ علمِ اللهِ لأعمالهم القبيحةِ الكثيرة

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بيانيَّةٌ؛ لبيانِ أنَّ ظنَّهم بأنَّ اللهَ لا يعلمُ كثيرًا هو مِن الذي يعملونه مِن الأعمالِ القبيحةِ، وقد أفادتْ (مِنْ) إضافةً إلى ذلك تكثيرَ المعنى، والدَّلالةَ على التَّعليلِ مضمومًا إليه دلالةُ الابتداء التي هي الأصل في معنى (مِنْ)، والمعنى: ولكن ظنَنْتُم أنَّ اللهَ لا يَعلمُ شيئًا منذُ ابتداءِ ما تعملون إلى آخره.

معنى (ما) ودلالتُها في قوله: ﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾:

لشدَّةِ كفرِهم ظنّوا أنَّ الله لا يعلمُ كلَّ الذي يعملونه

(ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ اسم موصولٌ يُفيدُ العموم؛ لتشملَ عمومَ ما يعملون، والمعنى: ولكنْ ظنَنْتُم أنَّ اللهَ لا يعلمُ كلَّ الذي تعملونه، ممّا يدلُّ على شدَّةِ كفرِهم، ويحتملُ أنْ تكون مصدريَّة، والمعنى: ولكن ظننتم أنَّ الله لا يعلمُ كثيرًا من عملكم.

الغرضُ من التَّعبير بالمضارع ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

تصويرٌ لحالهم المنكرة من خلال تجدُّدِ أعمالهم السَّيِّئة واستمرارِها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالمضارع ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ولم يقل: (عملتم)؛ للدَّلالةِ على حكايةِ حالهمُ المنكرةِ، بما يُصوِّرُ قُبحَ أعمالِهم من الأقوال والأفعال، وللدَّلالةِ على تكرارِ ما عملوا من القبائح وتجدُّدِها واستمرارِها، أي: ممّا تجدِّدون عملَهُ مُستمرّين عليه، وهو ما كنتم تَعُدّونه خَفيًّا، فهذا هو الذي جرَّأكم على ما فعلتم[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 172، والهلال، تفسير القرآن الزّريّ: 24/ 151.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

السِّتر والإخفاء:

السِّترُ أبلغُ من الإخفاء، فسَتَّرَ الشَّيءَ، وسَتَرَهُ: بالغَ في تغطيته وإخفائه، وتَسَتَّرَ الشَّخصُ: تخفَّى، واحتجبَ، وتغطّى[1]، والسِّتر: الخَوفُ، يُقال: فلانٌ لا يَسْتَتِرُ من اللّه بسِترٍ، أي: لا يَخْشاه، ولا يَتَّقيه، وهوَ مَجاز، ويُقال: ما لِفلانٍ سِتْرٌ ولا حِجْرٌ، فالسِّتْرُ: الحَياءُ[2]، والمعنى المحوريُّ للسِّترِ: هو تغطيةُ الشَّيء ما وراءَه[3].

السِّترُ أبلغُ مِن الإخفاءِ وأوسعُ دلالةً

وأمّا الإخفاءُ؛ فهو مقابِلُ الإبداءِ والإعلانِ والإظهار والجَهْر[4]، ومن هنا كان استعمالُ لفظ ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ أنسبَ مِن لفظ (تستخفون)؛ لكون لفظ ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ أبلغَ وأوسعَ دلالةً، فقد دلَّ على معنى المبالغة في التَّخفّي والاحتجاب والوقاية والخوف والحياء، أي: لم تستتروا، ولم تتَّقوا، ولو تكلُّفًا.

(1) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (ستر).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (ستر).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ستر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خفي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"